

الإعجاز البلاغي في الأسلوب النبوي: دراسة وتحليل

إعداد:

الدكتور محمد ثاني محمد برنؤن

قسم اللغة العربية بالكلية

كلية آدم أوغي للتربية، أرغنتغ، ولاية كب نيجيريا

المدخل

الحمد لله رب العالمين القائل ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ (٢) إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ﴾. والصلاة والسلام على سيد المرسلين أفصح من نطق بالضاد المبعوث ليلم مكارم الأخلاق القائل: ((أدبني ربي فأحسن تأديبي)) وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته، ومن استنَّ بسنته إلى يوم الدين.

تقصد دراسة الأسلوب بصفة عامة إلى الوقوف الدقيق عند عناصر التعبير ومكوناتها الأساسية، استكشافا لفصاحتها وقوة بلاغتها، ودقة معانيها، مع استيضاح طرق أدائها ومطابقتها الحال والمقام.

وهذه الدراسة تتعلق بالمصدر الثاني من مصادر اللغة، وهو حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، هدفا إلى النظر في ألفاظه وتراكيبه، وبحثنا عن مستجدات خصائصها في قوة المعاني ودقة سمات التعبير وقيمها الفنية وما تقتضيها في ظروف الحياة التطورية مهما يمكن من حال لتحقيق الإعجاز النبوي البلاغي الفذ في أساليب القول المقتبس من الوحي الإلهي، ودلالة على صدق رسالته صلى الله عليه وسلم، حيث اختص تعبيره البياني بمزايا لا تكاد ترى في غيره من فصحاء أهل البيان بدقة المعاني وقوة وضوحها، وبكل اختصار يتكون هذا المبحث من نقاط تالية:

المفهوم المعجمي للأسلوب:

هو مصدر سلب يسلب سلبا، يقال سلب الشيء سلبا: انتزعه قهرا، وفلانة فؤاده أو عقله^(١)، أي استهوته واستولت عليه. وفلانا سلبه، وجرده من ثيابه وسلاحه، والشجر والنبات: قشره أي جلده من ورقة وثمره وغير ذلك^(٢)، ويقال أيضا: لبست الثكلى السلاب وهو الحداد، وتسلبت وسلبت على ميتها فهي مسلب، ولإحداد على الزوج، والتسلب، وسلبت أسلوب فلان: طريقته، وكلامه على أساليب حسنة^(٣). ويقال ناقة سلوب: أخذ ولدها ونوق سلائب، ويقال للمتكبر: أنفه في أسلوب إذا لم يلتفت بمنة ولا يسرة.

وخلاصة القول: إن كلمة الأسلوب إذا تدل في أصل استعمالها على الأخذ كما سبق، ثم تدرج استعمالها على دلالات متنوعة على قدر محلها في مختلف الأحوال والمقامات، فكانت تطلق على فنون القول وشعابها الخاصة، وعلى طريقة التعبير أو تأليف الكلمات والمركبات، والعبارات، وتستعمل أيضا على كل طريق ممتد، وعلى الوجه، والمذهب. وكما تدور كلمة الأسلوب حول الأحوال مثل: فلان في أسلوب سوء، ونحو: أنف فلان لفي أسلوب إذا كان متكبرا^(٤).

هذا فواضح أن كلمة الأسلوب حسب دلالة المعاجم على حدها يقصد بها طرق متباينة للتعبير، يتوخاها الأديب عند إبداعه متكاملة العناصر الفنية لقصد التأثير^(٥)، وأنها لم تستقر في سابق العصور دلالتها حاسمة إذ هي تطلق على النوع الأدبي مرة، وأحيانا تحمل على صورة المعنى الجزئي، وحينما آخر يدل على ترتيب الألفاظ والمعاني، وكانت عند المحدثين تعني مطابقة الكلام لمقتضى الحال والمقام.

المفهوم الاصطلاحي للأسلوب:

اختلفت عبارات الأدباء والبلاغيين حول تحديد معنى الأسلوب اصطلاحاً بعبارات متعددة يذكر الباحث أهمها على ما يأتي:

- هو طريقة الإبداع الفني الذي يسلكها المتكلم ليعبر بها عما في ضميره من المعاني البديعية يكتمل بها مقاصده الكلامية^(٦).
- إنه مسلك ثقافي يختاره الكاتب أو المعبر ليرتب الألفاظ والتراكيب حسنة النظام^(٧) يؤدي بها المعاني الرائعة بعبارات واضحة مؤثرة كما قال ابن خلدون في مقدمته: هو عبارة عن المنوال الذي ينسج فيه التراكيب، أو هو القلب الذي يفرغ فيه الكوامن النفسية العميقة الراقية التي تتميز في عمق التفكير، وسمو الشعور^(٨)، وسحر التصوير.

فعلى ما سبق فإن الدلالة الاصطلاحية للأسلوب تستقر في كونه منهج التعبير الذي ينهجه المتكلم لتصوير المعاني وتأليف المفردات والتراكيب كي يتمكن على توضيح المقصود المؤثر، وإنه على حسب اختلاف العوامل المؤثرة يتنوع إلى نوعين:

أ/ الأسلوب الراقى^(٩)، وهو يتميز عن غير بأمور آتية:

- الوضوح: بأن يكون بلغة يفهما الناس بدون حرج ولا اعتزال، ولا يتحقق ذلك إلا بالتزام ما يلي:

(١) الدقة ووضوح الفكرة، وذلك بأن تكون العبارة ممتازة ظاهرة الخواص، والمعاني حسب قدرة المتكلم على اختيار كلمات مشتركة في المعاني^(١٠)، تدل الفكرة كاملة مع الاستعانة بالعناصر الشارحة، أو المقيدة، أو

المخيلة، والبعد عن الغريب الوحشي، والعمد إلى لغة الناس وما يستطيعون إدراكه، طبقاً للعصور وطبقات الناس.

(٢) جلاء التراكيب، وهو كون الأسلوب مطابقاً لإدراك القارئ، ولا يتحتم ذلك إلا إذا ظهر في صورة من الرقة والجزالة، أو السهولة، والصعوبة، على قدر المعاني التي تؤديها العبارات بمساعدة ذوق نحوي شديد يحسن التأليف به بين الألفاظ الدال على معان دقيقة معينة، والثوق من العنصر الرابطة بين المعني قدر ما ركبت بنظام دقيق وتأليف متسق ومراعاة بين الجمل من الفصل والوصل وغيرها.

- قوة الأسلوب: والمقصود منه أن تستيقظ العقول والعواطف لإدراك المعاني والحظوظ بمتعة جديدة، ولا يتم ذلك إلا بمراعاة ما يلي:

(١) قوة الصورة التي تتجاوز بالعقل معناها الحرفي إلى معاني أخرى مجازية باستعمال المؤلف من الألفاظ، وتحاشي الضعيفة منها والعناصر الثانوية في العبارات.

(٢) قوة التركيب، والمقصود منه الدلالة على المعني والكلمات المهمة بوسيلة أخرى ليست صوتية، وذلك بوضع الألفاظ حيث تكتسب عناية وانتباه السامع، والذي يساعد على اكتمال ذلك تقديم الألفاظ وتأخيرها بالنسبة لموضعها الطبيعي، وكذلك الطباق البديعي لمقابلة المعاني المزدوجة، والإيجاز (١١).

ب/ الأسلوب الدنيء وهو الذي يعاكس ما قبله لنقص الأمور السابق، وهو في ضعفه على مراتب حسب ضعف المكونات المؤثرة.

عوامل تكوين الإعجاز البلاغي في الأسلوب النبوي

هي تلكم المؤثرات المحيطة بالكلام النبوي التي تجعله يأخذ الفكر والخيال والعاطفة المتصلة بالذوق الفني الرفيع مفجرة بالحس المشبوب و الإدراك البعيد متدفق بلوعة الواقع وحرارة الحقيقة، تشوق إلى معرفة ما وراء الواقع، مؤلف يجمع بين جمال الموضوع وجمال الإخراج حتى ليندمج^(١٢) بالمدلول اندماج الحرارة بالنار، والضوء بالشمس، إن يصغي إليه أحد إلا وجد نفسه قبالة الحديث الطبيعي الذي لا بد له أن يكون بالضرورة على ما هو عليه من الوحدة^(١٣). فعلى ذلك يجدر الإشارة إلى شيء من تلك الملابس الإعجازية بما يلي:

فصاحته الفذة:

إن الفصاحة البيانية التي تفجرت على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم من الأمور التي أراقتها حكمة الله تعالى تشريفاً لنبيه لما بعثه في قوم لهم شأن عظيم في البيان والفصاحة، وفي قبيلة قريش التي تعد أفصح القبائل العربية، وولد في بني هاشم^(١٤). وكان رضاعه في بني سعد بن بكر التي هي من أفصح قبائل البدو لساناً، ومصداق ذلك قوله عليه الصلاة والسلام "أنا أفصح العرب بيد أبي من قريش ونشأت في بني سعد بن بكر" هذا ما جعل مصطفى الرافعي^(١٥) يقول: إذا نظرت فيما صح نقله من كلام النبي صلى الله عليه وسلم على جهة الصناعتين: اللغوية، والبيانية، رأيته في الأولى يسدد اللفظ ويحكم الوضع جزل التركيب، متناسب الأجزاء في تأليف الكلمات، واضع الصلة بين اللفظ والمعنى، وهذا ما جعل الصحابة أنفسهم يعجبون ببيانه صلى الله عليه وسلم ويرونه في درجة العلو، حتى إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال له مرة: "لقد طفت في

العرب وسمعت من فصحاتهم فما سمعت أفصح منك، فمن أدبك؟. قال: ((أدبني ربي فأحسن تأديبي))^(١٦) وقال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١٧).

فهذا ما جعل كلامه يتميز عن غيره من البشر بأمر منها ما يأتي:

(١) خلوص المعاني من جميع العيوب التعبيرية، ووضوحها لكل أحد، وذلك

لأنه كان يخاطب كلا على قدر لهجته وعقله حتى أنه طعن في الذين يعتقدون في كلامهم كما في حديث عبد الله بن عمرو: "إن الله عز وجل يبغض البليغ من الرجال أو الناس، الذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها"^(١٨).

(٢) صحة تلك المعاني بأن كانت صحيحة يستفاد منها مقاصد صراحة لا

فساد فيها لاحتواها على الأحكام والحكم نحو قوله في حديث أبي هريرة: "المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن يكف عنه ضيعته، ويحوطه من ورائه"^(١٩).

(٣) إيجاز المقطع حيث كان يعبر عن المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة ضد الإطناب

والمساواة، وهو صلى الله عليه وسلم موجز في محل القطع والفصل، كما في حديث أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما حيث قال: المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور.."^(٢٠).

(٤) بلوغ النهاية في الفصاحة والبلاغة وأخذ الكلام، ومطلعه حتى كان

يصطلح عليه صلى الله عليه وسلم أنه أفصح من نطق بالضاد مثل قوله في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا ولا تحسسوا..."^(٢١).

(٥) سهولة طبعه وسلامتها بأن كانت طبيعته الكلامية في دقة اختياره الألفاظ والجمل ومطابقتها الحال والمقام، وبلاغته تأتيه بسهولة دون تكلف كما في قوله في حديث عائشة رضي الله عنها حيث قالت: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجل طلق امرأته ثلاثا فتزوجت زوجا غيره فدخل بها ثم طلقها قبل أن يواقعها، أتحل لزوجها الأول؟ "لا تحل للأول حتى تذوق عسيلة الآخر ويذوق عسيلتها.."؟^(٢٢).

(٦) قلة التكلف وهو عليه السلام يتكلم في سلامة طبعه من غير تشدق ورعاية سجع، أو اختيار الألفاظ والمعنى وترتيب الأفكار عند الأداء فإنه بريء من جميع ذلك، وقد أثبت القرآن العزيز تلك البراءة حكاية عنه: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾^(٢٣).

وشهد بذلك على نفسه صلى الله عليه وسلم حيث قال: ((أمرت أن أجاز في القول فإن الجواز هو خير))^(٢٤).

يدل الثبوت بأن المساعد الأساسي له في هذا كله تأثره بالقرآن لغة وأسلوباً، به يتخلق، وبه يحكم، وأنزل في قلبه مختلطاً بدمه ولحمه ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾^(٢٥). ثم قوة فطرته الأصلية.

سمات أسلوبه صلى الله عليه وسلم

إنها سمات كثيرة متعددة يمكن إجمالها في نقاط تالية:

(١) شمول أسلوبه بلاغة وصلت إلى قمة مرتبتها ما لم تعهد العرب بمثلها من عربي مهما جلت بلاغته سابقاً أو لاحقاً، وفصاحته الفريدة خالفت تماماً

ما عليه العرب في كلامهم وبلاغتهم المعهودة في سطوع المعاني وملائمتها.

(٢) تضمن كلامه من علوم غيبية بأخبار المستقبل نحو قوله: ^(٢٦) ((والذي

نفس محمد بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبل أحد حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها.)) ^(٢٧).

(٣) احتواؤه على شتى العلوم لا يحيط بها إلا من اختلطت فطرته بملايسات

الوحي الإلهي وذلك كله إثبات ودليل قوي على ثقب رسالته وابتعاده عما تفتري عليه الكفرة مثل قوله عليه السلام: (يقول الله عز وجل يوم القيامة يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك، فينادي بصوت رفيع: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا من النار، فيقول يا رب وما بعث النار؟ قال: من كل ألف أراه: قال: تسعمائة وتسع وتسعين، فحينئذ تضع الحوامل حملها، ويشيب الوليد، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم) ^(٢٨).

(٤) اتصافه بما يعجز عن مثله فصحاء العرب وبلغائهم من دقة اختيار

الألفاظ وحسن تركيبها في درجة بلاغية لم يعهد منها في تراكيب اللغة ما تقصر عنها درجات البلاغة، حتى إنه حير بلغاء العرب، وأثبت لهم تأليفه العجيب وأسلوبه الغريب، كامل الربط بين المعني والألفاظ، وأدهشهم بسلامة التركيب والترتيب، وأكسبها لونا طريفا من الإبداع لم يكن معروفا قبله. هذا عمر ابن الخطاب القرشي رضي الله عنه حيرته بلاغته فقال: يا

رسول الله ما بالك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا،^(٢٩) وأمثلة ذلك كثيرة، ويكفي عن كل ذلك خطبته الأولى التي ألقاها أمام عبقریات قريش بلاغة ((إن الرائد لا يكذب أهله، ولو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحسبن بما تعلمون، ولتجزون بالإحسان إحسانا، وبالسوء سوءا، وإنها الجنة أبدا أو النار أبدا، وإنكم لأول من أنذر بين يدي عذاب شديد...))^(٣٠).

فأكثر من استعمال أدوات التوكيد وغيرها، لإفادة استمرار الأمر وتجده واستحضارا للصورة، صلى الله عليه وسلم.

مميزات أسلوبه في تأدية المعنى:

كان أسلوب النبي صلى الله عليه وسلم في إيصال المعاني التعبيرية يمتاز بجزالة الألفاظ والتراكيب في دقة وضوح الوصف التعبيري والإبداع الموسيقي والتصويري في فنون القول ومختلف مجالاته، هذا وبالاستقراء الأحاديث النبوية وشمولها المعاني ومميزات وسائله الأدبية تثبت الباحث واستكشف منها خصائص المعاني الفردية ووجوه التعبير عنها، سلكها رسول الله صلى الله عليه وسلم في أداء المعاني وإيصالها في سحر البيان وقوة التأثير في النفوس، يمكن الإشارة إلى شيء من خاصية معاني كلامه:

- منها شمول كلامه على كثير من المعاني والحقائق والأسرار والأحكام في قلة الألفاظ والجمل، نحو قوله عليه السلام: ((إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى...))^(٣١).
- منها الإحكام بأن يكون كلامه صحيحا في ذاته حيث يفيد الحقائق التي لا تتبدل بتغير الظروف والملابسات، والتي يستفاد منها ما يمتاز به الحديث إلى جانب المعنى من الترابط وتسلسلها، نحو قوله عليه السلام: ((مثل المؤمنين في تواددهم وتراحمهم وتعاطفهم...))^(٣٢).
- ومنها الغوص في أعماق النفس ومخاطبة القلب والضمير نحو قوله عليه السلام: ((إنما الحرب خدعة))^(٣٣).
- ومنها جزالة المعنى وفخامتها مع قوة وضوحها في الدلالة مع تعدد الصور البيانية تستهدف إلى توضيح وتقريب للسامعين في الوقت الذي تسترعي الأسماع بما فيه من جاذبية وتلوين.
- التناسق وجمال الوقع بما فيه من توافق بين المعنى وانسجام في أصوات الحروف، وهو الذي يمكن التعبير عنه بموسيقى. أو إيقاعه نحو قوله عليه السلام: ((إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر...))^(٣٤)، فالكلمة الأخيرة توحى بصوتها صوت من يعالج الموت في حنجرتة، وذلك من شأنه أن يساعد على تقريب المعنى وتمكينه في النفس. وكذلك قوله: ((المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه البعض...))^(٣٥). في هذه الجملة من تناسق وترابط ما يجعلها كأنها قطعة واحدة تنبثق منها المعنى المتكاثرة مرجعها نطاق واحد يدرك بعمق التفكير.

- ومن ذلك دقة مسلكه في استخدام وجوه العبير البلاغي وروائع إبداعه الفني لتحقيق الأغراض والمقاصد.
- الإبهام والتفسير، الذي يعد على مرتبة تالية للقرآن، إذ به يخاطب العقل ويكسب به الكلام إعجابا وفخامة، ولأنه كلما قرع السمع على جهة الإبهام فإن السامع له يذهب في إبهامه كل مذهب،^(٣٦) انظر إلى قوله عليه السلام: ((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم نافع ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له...))^(٣٧). ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَوَاءٍ مَقْطُوعٌ مُّصْحِحَاتٍ ۗ﴾^(٣٨). وفي كلا المثالين فسر المبهم بما بعده وذلك أدعى للاعتبار والتأمل.
- الإيجاز وهو اندراج المعنى المتكاثرة تحت الألفاظ القليلة، وهو من خصائص البلاغة النبوية وهو المراد بقوله عليه السلام، ((...وأتيت جوامع الكلم...))^(٣٩)، نحو قوله: ((إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى...))^(٤٠)، وهو نظير قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ يَمَا تُوْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُسْرِكِينَ﴾^(٤١). وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٤٢). وفي ذلك إبانته المعاني واستغراق أجزائه ما تكاد الأفكار تعجز عن وصفه وحصره.
- التأكيد والمقصود منه تمكين الشيء في النفس وتقويم أمره^(٤٣)، حيث يزيل أسلوبه الشكوك والأذى عما أنت بصدده لما فيه من دقيق المأخذ، والهدف منه توسع المعنى وعمق الدلالة، انظر إلى قوله عليه السلام: "ألا أدلكم على ما يحموا الله به الخطايا ويرفع به الدرجات" قالوا بلى يا رسول الله، قال: ((أسبغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار

الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط فذلكم الرباط..))^(٤٤). وقوله في وصف يوسف عليه السلام: ((الكريم ابن الكريم ابن الكريم))^(٤٥). وفي هذا التكرار دلالة بالغة تشعر بنهاية الشرف وعظم المنزلة ورفع التربية عند الله. ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٦﴾﴾^(٤٦). ليفيد قوة العناد وجبروت التعالي على الله تعالى.

- اللف والنشر، الذي يعني به ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال، ثم إتباعه بذكر ما لكل واحد من غير تعيين^(٤٧)، ثقة بأن السماع يرده لعلمه بأن القرائن اللفظية والمعنوية، نحو قوله عليه السلام: ((إنما يؤتى الناس يوم القيامة من إحدى ثلاث: إما بشبهة في الدين ارتكبوها، أو شهوة للذة آثروها، أو عصبية لحمية اعملوها، فإذا لاحت لكم شبهة فأجلوها باليقين، وإذا عرضت لكم شهوة فاقمعوها بالزهد، وإذا عنت لكم عصبية فأدرؤها بالعمو...))^(٤٨). وهذا التعبير في نوعه أقصى وسائل تأدية المعنى وإيصالها إلى أعماق النفوس، والتأثير، وأدعى إلى عمق التفكير الناتج عنه الامتثال والتناهي، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا يَلَكُ أَمَانِيَهُمْ قُلْ هَانُوءًا بُرْهَدْنَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣٦﴾﴾^(٤٩). وفيه من الدقة واللطافة ما لا يجارى. ونحو قول الشاعر:

أراؤكم ووجوهكم وسيوفكم * في الحادثات إذا دحون نجوم

فيها معالم للهدى ومصباح * تجلوا الدجى والأخريات رجوم^(٥٠)

الجمع: وهو شمول متعدد في حكم واحد^(٥١)، أو هو جمع المتكلم بين الشيعيين فأكثر في حكم واحد نحو قوله الرسول صلى الله عليه وسلم: من أعطي فشكر، وابتلي فصبر، وظلم فغفر" ثم سكت، فقالوا يا رسول الله ماله؟ قال:

أولئك لهم الأمن وهم مهتدون". ولبلوغه النهاية في دقة التعبير وعلو بلاغته جمع الشاكر والصبر والغافر تحت حكم واحد مفصل، لا يرتاح حوله الشك والارتياب، ألا وهو الأمن والهداية. كما في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْكَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَأَجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٥٢).

جمعها كلها في حكم واحد مفصل، وهو الرجس. وذلك مثل قول الشاعر:

إن الشباب والفراغ والجدة * مفسدة للمرء أي مفسدة^(٥٣)

- الإرصاد: الذي هو كون أول الكلام مرصدا لفهم آخره^(٥٤) ومشعرا به حتى يكون متى قرع سمع الإنسان أول الكلام فإنه يفهم آخره نحو قوله عليه السلام: "من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع...". وفي قوله (من خرج) مرصد لفهم أنه لا يزال في ذلك الحكم حتى يرجع، ونحو قول الشاعر:

أحلت دمي من غير جرم وحرمت * بلا سبب يوم اللقاء كلامي

فليس الذي حللته بمحلل * وليس الذي حرّمته بجرام^(٥٥)

- ومنها رد العجز على الصدر الذي هو جعل اللفظين المكررين أو المتجانسين^(٥٦) في أول الفقرة والآخر في آخرها مثل قوله صلى الله عليه وسلم: "الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله وأداها إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان"^(٥٧).

ويأتي هذا النوع من الكلام النبوي لتوضيح صورة تناسقية بين المعاني المتضادة، وذلك خلاف ما يظن من أن الهدف منه تلك الصنعة اللفظية، بل خدمة للمعاني واستيفائها، كما في قول الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ

وَيْلَكُمْ لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى ﴿٥٨﴾ . وقال الشاعر:

ذوائب سود كالعناقيد أرسلت * فمن أجلها منا النفوس ذوائب^(٥٩)

وخلاصة القول: إن استعمال الرسول لهذه الظاهرة البلاغية استعمالاً غير عادي لدى فصحاء العرب في روعته وشموله المعنى الفذ في تأثيره في النفوس، وهي من براهين إعجاز أسلوبه الذي احتل مكانة مثل أعلى في البلاغة بعد القرآن الكريم، لاتسامه في جميع أساليبه الأدائية بالإيجاز العالي على وضوح قوي جياش تام الانسجام لما بين الألفاظ والتراكيب ومعانيها، وأغراضها من الائتلاف الملائق بجمال الموضوع والإخراج، ما يأخذ به الفكر والخيال والعاطفة المتصلة بالذوق الفني الرفيع، مع مساعدة سلطة لسانية وقدرة بيانية وعبقورية أسلوبية خلقت أثرها ما فيما يأتي:

في اللغة: من أثر في اللغة أنه أضاف فيها ألفاظاً وتراكيباً ووسع الاشتقاق فيها مثل تسميته "صفر الأول محرماً"^(٦٠). والبغبي بـ(الزمارة)^(٦١). وشق الباب بـ(الصير)^(٦٢)، والدخول بـ(لدمار). وحتى قال أبو عبيد اللغوي لم يسمع هذه الحروف إلا منه عليه السلام، وكذلك قوله: "مات حتف أنفه"^(٦٣)، وقوله: "الآن حمي الوطيس"^(٦٤). و"لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين"^(٦٥). وحتى قال علي رضي الله عنه ما سمعتها من عربي غيره^(٦٦).

ووسع أيضاً المعاني في بعض الألفاظ مثل: الصلاة، والزكاة، والكفر، وغيرها من الألفاظ الدينية.

الأدب: كان لحديثه أثر فعال في نهضة الأدب العربي وتقدمه، يظهر ذلك في تأثيره على الكتاب، والشعراء، والبلغاء، حيث كان كل يحاول القبس من منهله

الأدبي لروعة أسلوبه، واحتل الحديث وروايته وشروحه على مكانة فائقة أثرت في نشر اللغة العربية وظهور علوم دينية مثل: علم الحديث رواة ودراية، وعلم مصطلح الحديث، ورجال السنن، والجرح والتعديل، وغيرها. وقد كان أيضا تراثا أدبيا جمع الكثير من الحكم، والأمثال، والعظات، والعبر، في قوة بلاغية، وقدرة بيانية. وفي ذلك كله دلالة على أن أسلوبه كان معجزا لملاسته بعد نزول الوحي عليه بالذوق الرفيع من البيان حيث لا يعلوه في مجال الأدب العالي شيء غير القرآن في روعته وبلاغته الإعجازية.

خاتمة:

إلى هنا ختام هذا العرض الموجز، بعون الله تعالى توصل الباحث خلال هذه الدراسة إلى جم غفير من الفوائد، يمكن إجمالها فيما يلي:

يظهر من الإعجاز البلاغي في الأسلوب النبوي الشريف مما تقدم حيث إنه عليه الصلاة والسلام لم يخرج عن طرق النظم المتعارف عليه لدى العرب، في حروفها وجملها، وأساليب ومعانيها، وقواعد العربية، ولكنه ألبسها حللا جديدة رائعة بديعية تصدرت من الوحي الإلهي، وقوة الفطرة المستمرة الصافية، وامتزاج ثقافة البدو والحضر مع أظهر العرق الأصيل، وصبغها بصبغة نبوية أضفى إليها سمات ومميزات تعجز عن مثلها عقول أرباب اللغة والفصاحة في إتقان الأداء وعمق المعاني وجدتها. وسرعة غوصها في أغوار النفوس.

فإنه يأتي في المقام الذي يستدعيه دائما ويتطلب دون سواه، بقوة وجمال في جميع ما يرد فيه، وهو في قوة أثره وتأثيره في النفوس يثير الإعجاب ويوقظ الشعور

ويحركه للنهوض إلى ما يحمد عقباه أو الحجز عن عكسه، ويجعل التصوير أقوى دلالة وأكثر إيجاء للفوائد الجليلة، وذلك ممكن بلاغته وسر إعجازه. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على المبعوث ختاماً للنبوة، ومتما لمكارم الأخلاق.

الهوامش:

- (١) ابن منظور: لسان العرب، دار الفكر بيروت لبنان، ج ١/ص: ٤٧٣.
- (٢) الزبيدي أبو الفيض، محمد بن محمد بن عبد الرزاق: تاج العروس من جوهر القاموس، ج ١/ص: ٥٩١.
- (٣) موقع الوراق: <http://www.alwarraq>.
- (٤) ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسين، جمهرة اللغة، ج ١/ص: ٢٨٩. دار المعارف الهند.
- (٥) أغاك عبد الباقي شعيب، (البروفيسور)، أساليب بلاغية في ديوان الأستاذ عبد الله فودي، ص: ٣١٤ وما بعدها، ط - ٢، مركز المضيف إلورن نيجيريا. ٢٠٠٠م.
- (٦) الشايب أحمد: الأسلوب دراسة بلاغية لأصول الأساليب الأدبية، ص: ٤٢، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٨م.
- (٧) أغاك عبد الباقي شعيب (البروفيسور) البلاغة القرآنية لدى عبد الله فودي. ص: ٥١٥. ط - ١، مؤسسة المختار مصر القاهرة ٢٠٠٩م.
- (٨) ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد: مقدمة بن خلدون، ص: ١٢٩١، لجنة البيان العربي، القاهرة، دون تاريخ.

- (٩) السيوطي عبد الرحمن: المزهري في علوم اللغة، تحقيق فؤاد علي منصور، ج١/ص: ١٦٥. دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٩٨م.
- (١٠) أغاك عبد الباقي شعيب: أساليب بلاغية، ص: ٣١٥، المصدر السابق.
- (١١) الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ص: ٣١٥، دار بن قتيبة دمشق، ١٩٨٨م.
- (١٢) عفيفي طلعت (البروفيسور): الأسلوب وخصائصه، eb histing w free provider.
- (١٣) القلقشندي أبو العباس أحمد: صبح الأعشى، ج٢/ص: ٢١٠، دار الفكر بيروت لبنان، بدون تاريخ.
- (١٤) عز الدين إسماعيل: الأدب وفنونه دراسة ونقد، ص: ١٥٩، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٨م.
- (١٥) غنيم محمد عبد الحليم الدكتور: البلاغة النبوية دراسة تطبيقية، ص: ١١، مؤسسة المختار.
- (١٦) الرافعي مصطفى صادق: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: ٢٩٨. دار الكتب العربي بيروت، ١٩٩٠م.
- (١٧) سورة القلم: الآية: ٤.
- (١٨) السجستاني: أبو داود، ج٤/ص: ٢١٣١. باب ما جاء في المتشدد في الكلام، برقم ٥٠٠٥. المصدر السابق.
- (١٩) البخاري: ج٨/ص: ٢٥، كتاب الأدب، المصدر السابق.
- (٢٠) مسلم: ج٦/ص: ١٦٨. باب النهي عن التزور في اللباس، المصدر السابق.

- (٢١) البخاري: ج ٨/ص: ٣١. باب تحريم الظن والتجسس، المصدر السابق.
- (٢٢) السجستاني، أبو داود: ج ٢/ص: ٩٩٧. باب المبتوتة لا يرجع إليها زوجها، رقم: ٢٣٠٩. المصدر السابق.
- (٢٣) سورة ص: الآية: ٨٦.
- (٢٤) مسلم: ج ٨/ص: ٣٨. باب الأمر بالتجوز في لبقول. المصدر السابق.
- (٢٥) سورة الشعراء: الآية: ١٩٣ - ١٩٥.
- (٢٦) مسلم: ج ٨/ص: ١٧٦. كتاب الفتن وأشراط الساعة. المصدر السابق.
- (٢٧) نفس المرجع، والصفحة نفسها.
- (٢٨) العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري. ج ١٠/ص: ٣٤١. باب أخبار الأنبياء. دار الفكر بيروت، دون تاريخ.
- (٢٩) نفس المرجع والصفحة.
- (٣٠) المناوي عبد الرؤف: فيض القدير شرح جامع الصغير، ج ١/ص: ٢٢٥. الطبعة الأولى، المكتبة التجارية مصر دون تاريخ.
- (٣١) البخاري محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري، ج ١/ص: ٢. دار الكتب العلمية بيروت لبنان ٢٠٠٦ م
- (٣٢) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ص: ١٢٩٤، المصدر السابق.
- (٣٣) المرجع نفسه والصفحة.
- (٣٤) الترمذي محمد بن عيسى: سنن الترمذي، ج ٣/ص: ٣٨٩. تصحيح العطار صدقي محمد جميل، دار الفكر بيروت لبنان، ٢٠٠٨ م.
- (٣٥) مسلم: ج ٨/ص: ١٣٧. باب صفات المؤمنين، المصدر السابق.

- (٣٦) الجرجاني محمد بن علي ركن الدين: الإرشادات والتنبيهات في علوم البلاغة، ص: ٢١٩. دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ٢٠٠٢م.
- (٣٧) السجستاني: ج ٣/ص: ١٢٥٨. باب ما جاء في الصدقة على الميت، المصدر السابق.
- (٣٨) سورة الحجر: الآية: ٦٦.
- (٣٩) البخاري: ج ١/ص: ٩٢. التيمم، المصدر السابق.
- (٤٠) المرجع السابق، ج ١/ص: ٢١.
- (٤١) سورة الحجر: الآية: ٩٤.
- (٤٢) سورة النحل: الآية: ٩٠.
- (٤٣) غنيم عبد الحليم: البلاغة النبوية، دراسة تطبيقية، ص: ١٠. المصدر السابق.
- (٤٤) الترمذي أبو عيسى: سنن الترمذي: ج ١/ص: ١١٨. المصدر السابق.
- (٤٥) غنيم عبد الحليم، ص: ١٢ المصدر السابق.
- (٤٦) سورة الشعراء: الآية: ١٣٠.
- (٤٧) القزويني الخطيب: الإيضاح في علوم البلاغة. ص: ٣٠٢. المصدر السابق.
- (٤٨) غنيم عبد الحليم، ص: ١٦، المرجع السابق.
- (٤٩) سورة البقرة: الآية: ١١١.
- (٥٠) القزويني: المرجع السابق، ص: ٣٠٣.
- (٥١) غنيم عبد الحليم، ص: ١٦. المرجع السابق.
- (٥٢) سورة المائدة: الآية: ٩٠.
- (٥٣) القزوين: المرجع السابق، ص: ٣٠٣.

- (٥٤) الجرجاني ركن الدين: الإرشادات والتنبيهات في علوم البلاغة، ص: ٢١٥. المصدر السابق.
- (٥٥) القزويني: المرجع السابق، ص: ٢٩٧.
- (٥٦) الجرجاني ركن الدين: المرجع السابق، ص: ٢٣٣.
- (٥٧) البخاري: ج ١/ص: ٨١. باب ما جاء في الحياء، المصدر السابق.
- (٥٨) سورة طه: الآية: ٦١.
- (٥٩) الجرجاني ركن الدين، ص: ٢٣٤، المرجع السابق.
- (٦٠) المناوي: ج ١/ص: ٢٢٥. المرجع السابق.
- (٦١) البيهقي أحمد بن الحسين: سنن الكبرى، ج ٦/ص: ١٢٦. برقم: ١١٤٦٨. دار الباز مكة المكرمة، ١٩٩١ م.
- (٦٢) ابن الأثير، مجد الدين: النهاية في غريب الحديث، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، ج ٢/ص: ٣١٢. المكتبة الإسلامية مصر. دون تاريخ.
- (٦٣) الجاحظ، أبو عثمان: البيان والتبيين، ج ٢/ص: ٤٣. دار إحياء العلوم، دون تاريخ.
- (٦٤) الجاحظ: ج ٢/ص: ٤٥. المرجع السابق.
- (٦٥) السجستاني: ج ٤/ص: ٢٠٧٥، برقم ٤٨٦٤. المصدر السابق.
- (٦٦) غنيم عبد الحلیم، ص: ١٩. المرجع السابق.